التجديد في الادب

للاستاذ احمد امين

— ٣ —

من أوضح الظواهر أن الجمهرة العظمي من المتعلمين الذين درسوا أدباً عربياً وأدباً أجنبياً يعكفون على الادب الاجنبي يتذوقونه ويكثرون من مطالعته ، فى جدهم إن شاءوا الجد ، وفي لهوهم ان شاءوا اللهو . وهم ان قرأوا فى الادب العربي ففي القليل النادر ، وان فعلوا لم يطيلوا ولم يتعمقوا ، وقل أن يدرسوا كتابا دراسة جيدة ، إنما أكبر همهم أن يقلبوا صفحات الكتاب ليقع نظرهم على أبيات من الشعر يستملحونها ، أو قصة طريفة يتفكهون بها . ومكتبتهم — على قلتها — تمثل ميلهم ، فالكتب الانجليزية أو الفرنسية فيها غالبة ، والكتب العربية قليلة نادرة .

ذلك ولا شك حال أغلب المثقفين ثقافة عصرية .

ويذهب بعض الباحثين فى تعليل هذه الظاهرة إلى أن السبب يرجع إلى فساد تعليم اللغة العربية وآدابها فى المدارس ، فان أساتذتها لايحببون الى الطلاب الادب العربى ، ولا يصلون به إلى نفوسهم ، وإنما هى أمثلة محدودة تتكرر عاما بعد عام ، ونماذج من الشعر والنثر تعرض مرة بعد مرة ، ولا غرض من دراستها الا ان يذكرها الطلبة عند الامتحان فيؤدوها كما تليت عليهم ، ثم تذهب بذهاب الامتحان ، لانهم قد تجرعوها علي مضض ، فهم يفرحون بنسيانها فرح المريض — وقدشفي — بالخلاص من دواء مر المذاق .

قد يكون هذا سببا صحيحا ، ولكنه فيما اري ليس بالسبب الجوهرى ، فان بعض اللغات الاجنبية التي تدرس بيننا ليست دراستها باحسن حالا من دراسة اللغة العربية ، ومع هذا فالطلبة يسيغون أدبها ويتذوقون كتبها بما لا يظفر ببعضه الادب العربى .

اهم سبب عندي يرجع الى موقف الادبين الادب العربى والادب الاوربى .

ذلك أن كل أدب اوروبي له قديم وحديث ، والادب الحديث هو الذي يناسب جمهور المتعلمين وعامة الشعب ، لانه فى الغالب يعرض لما يشعرون به فيعبر عنه التعبير الفني ، فالاديب المحدث يرى ظاهرة اجتماعية فيضعها فى قصة ، أو منظرا جميلا فيضعه فى قصيدة ، أو معنى أثارته فى نفوس قومه أحداث سياسية أو اقتصادية فيضعه فى مقالة أو كتاب ، فيقبل الجمهور على قراءة ذلك و يعجبون به ، وسبب الاعجاب أن الاديب شعر بما يشعر به الجمهور . واستطاع أن يعبر عنه التعبير الفنى الذى لا يستطيعه الجمهور . أما الادب الاوربى القديم فانما يناسب خاصة المتعلمين لأنه يتطلب دراسة لغوية وأدبية عميقة كما يتطلب — لتذوقه — أن يلم المتعلم بشيء كثير من المسائل التاريخية والاجتماعية التى احاطت بالاديب وبالقطعة الفنية حتي يستطيع ان يفهمها فهما صحيحا ، وليس ذلك فى مكنة السواد الاعظم من الناس . فالذين يفهمون الالياذة والاوديسة وخطب ديمستين قليل بالنسبة الي الذين يقرأون الادب الحديث و يفهمونه ، وكذلك الذين يفهمون الادب الانجليزى أو الفرنسى فى القرون الوسطي ويتذوقونه هم الخاصة من الادباء ، وان قرأ الجمهور شيئا من الادب القديم فانما يقرأه مترجما الى اللغة الحديثة . او معروضا في شكل جديد قد ذللت فيه كل الصعوبات التى يحتمل أن يلقاها القارىء العادى . اما الادب الانجليزي او الفرنسى الحديث فيكاد يكون حظ الانجليز او الفرنسيين جميعا

وسبب ذلك ان الادب هو نقد الحياة فى اسلوب فني ، واذ كانت كل امة تفهم حياتها الحاضرة فهما ما — وان اختلفوا فى مقدار الفهم — كان الادب الحديث اقرب الى فهمهم وأيسر متناولا لجمهورهم — واذ كان الادب القديم وصفا لحياة قديمة لايستطيع فهمها فهما صحيحا الا من عرف بيئتها وتاريخها ، كان ذلك الادب ادب الخاصة

* * *

وبعد فالادب العربي أدب قديم لاحديث له ، وان شئت تعبيرا دقيقا فقل انه ادب قديم لم يستكمل حديثه ، لذلك كان الادب العربى ادب الخاصة لا ادب الجمهور

لايستطيع القارىء ان يفهم الادب العربى القديم الا بفهم دقيق للتاريخ ، وفهم بالغ للظروف الاجتماعية التى نشأ فيها الأدب ومعرفة واسعة بالجغرافيا ، وعلم تام بقوانين الصرف المعقدة كأنها قوانين اللوغارتمات ليعرف كيف يبحث في معاجم اللغة العربية عن كلمة غريبة ، وليس يصبر علي ذلك كله الا المجاهدون الصابرون ، وقليل ماهم .

يريد سواد المتعلمين ان يغذوا مشاعرهم من حب يحلل تحليلا دقيقا ، او اعجاب بمنظر طبيعى ملك عليهم نفوسهم ، فارادوا ان يصور هذا الاعجاب فى قطعة فنية ، او تبرم باسر ورق فهم يريدون ادبا يتغنى بالحرية ويحفز النفوس الى تحقيقها ، او الم من سوء حالة اجتماعية فهم يبتغون قصة تمثلها . اوقصيدة تصفها ، او كتابا يحللها ،

او نحو ذلك من ضروب المشاعر فلا يجدها في الادب العربي الحديث الا قليلا نادرا فيضطر الى الادب الاجنبي يقرأه ويتغنى به ويستمرئه ، وهو على الرغم من ان ذلك الادب ليس بلغته ، ولا يصف مشاعر تمثل بالدقة مشاعره ، ولا يحلل حالات اجتماعية تشبه مشابهة تامة حالاته ، على الرغم من ذلك كله مضطر أن يقرأه ، اذ ليس عنده من ادبه ما يكفي لغذائه ، وفي الادب الغربي كل صنوف الغذاء على اختلاف الانواع وعلى اختلاف الاساليب ؛ ان شاء سهلا ، وجد السهل ، او صعبا وجد الصعب ، او بين ذلك وجد بين ذلك ، واذا غمض عليه لفظ استطاع ان يكشف عنه في المعاجم من اول درس تعلمه ، فكيف لا يهمل بعد ذلك الادب العربي ويعكف على الادب الغربي ؟

ان شئت فوازن بين ما يدرسه الطالب في المدارس الثانوية او العالية في الادبين ، فهو في الادب الغربي يدرس شكسبير وأمثاله فيجد موضوعا شيقا يمثل حالة من الحالات التي تتصل بنفسه ، وتمس حياته الاجتماعية بقدر ما ، قد صيغت في قالب فني رشيق ، فخرج من الدرس يحبها ويحب موضوعها ، اما في الادب العربي فيدرس مختارات من جرير والفرزدق والاخطل ، او مختارات من مقامات البديع والحريري او نحو ذلك ، وهذه كلها لا تمثل ناحية اجتماعية يحياها او ما يقرب منها ، ولا فكرة عميقة حللت تحليلا واسعا ، لذلك يخرج منها وهو لا يحبها ، او على الاقل يكون على الحياد منها .

لست انكر ان في جرير وأمثاله ، والمقامات وأمثالها ، وفي الادب العربي على العموم جمالا وفنا وابداعا ، ولكن ذلك لا يدركه الا الخاصة الذين مرنوا طويلا على الدرس وبذلوا الجهد في تدريب أذواقهم على تقويمه واستساغته ، وليس ذلك في استطاعة كل الطلبة ولا اكثرهم .

فان انت نظرت الى الادب العربي الحديث فماذا ترى ؟ ترى كثيرا من الادب الغربي قد ترجم الى العربية ، وليس من الحق ان نعد هذا ادبا عربيا في جوهره وموضوعه ، اذ ليس له من العربية إلا لغة ملتوية على النمط الغربي . وترى نتاجا مبتكرا قليلا ، واكثر هذا القليل مقالات وفصول جمعت بعد ذلك وسميت كتبا مجازا ، لا تربطها وحدة غالبا إلا بضرب من التمحل . والبقية الباقية من القليل هي التي يصح ان تسمى ادبا عربيا حديثا لم يكتمل .

ذلك في نظري أكبر سبب في انصراف جمهور المتعلمين عن الأدب العربي ، فان أريد اقبالهم عليه فلا بد من انتاج حديث وافر يغذي كل مشاعر الحياة كما يغذي العقول ، وليس من الحق ان ندعو السواد الاعظم الى الادب العربي قبل ان نستكمله او على الاقل نوجد فيه ما يسد رمقهم ، وان أردنا الانصاف فواجب ان ندعو الدعوتين : دعوة الادباء في العربية الى ان ينتجوا ، ودعوة القراء الى ان يقرأوا .

وينجح الادباء اذا اقتصروا على ان يحتذوا حذو القدماء شكلا وموضوعا دون ان يمسوا حياتهم الواقعية وبيئتهم الاجتماعية ومشاعرهم النفسية ؛ فالادب متغير ، خاضع لقانون الشوء والارتقاء ، فاذا تقيد أدباؤنا بالموضوعات التي عالجها القدماء وبالاشكال التي صب فيها الادب القديم ، عد ادبهم قديما لا حديثا ، ولم يصلح علاجا لما نصف من امراض .

مثال ذلك : انا اذا وضعنا ايدينا على مختارات البارودي ، وهو كتاب ضخم في اربعة اجزاء اختار فيها الثلاثين شاعرا من شعراء العصر العباسي ، وجدناه قد اختار نحو اربعين الف بيت ، منها اكثر من اربعة وعشرين ألفا في المديح ، واذا اضفت الهجاء والرثاء الى المديح وجدت جميع ذلك يقرب من ثلاثين ألفا ، والربع الباقي في الادب والصفات والزهد والنسيب !

فترى من هذا افراط الادباء القدماء في وصف العواطف الشخصية من كرم ورثاء وهجاء ، وتقصيرهم في ابواب كثيرة اهمها وصف المناظر الطبيعية ، وتحليل الانفعالات النفسية ، وغير ذلك من ضروب الادب .

وهذا التقصير وقع في الادب الاوربي القديم كما وقع في الادب العربي ، فلو قرأنا شعر هوميروس وفرجيل ودانتي وجدنا فيه قليلا من وصف جمال الطبيعة من جبال وبحار ونجوم ، على حين ان الشعر الاوربي الحديث قد ملىء بهذا الضرب من القول وابدع الشعراء فيه ابداعا لا حد له فأفاضوا في القول في السماء ونجومها ، والاشجار وازدهارها وذبولها ، والبحار والصحراء وغيرها ، ووجدوا في ذلك كله كنوزا استمدوا منها شعرهم ، وكان تقصير القدماء واجادة المحدثين في ذلك قانونا طبيعيا ، لان الاعجاب بجمال الطبيعة نتيجة رقي كبير في الذوق ، فاذا قصر ادباؤنا المحدثون في هذا كما هو حادث الآن وتابعوا الاقدمين في المديح والهجاء والغزل ، فقط — ظل نقص الادب العربي على ما هو عليه .

كذلك يعيش الشرقي عيشة خاصة غير التي كان يعيشها آباؤه ، سفرت المرأة بعد حجابها ، وتغير في العشرين سنة الاخيرة كل نظم الحياة تقريبا من معيشة بيتية ونظم اجتماعية ، وحياة سياسية ، واصبح كل باب من هذه الابواب يتطلب قصصا جديدا وشعرا جديدا وكتبا ادبية جديدة ، فان نظر ادباؤنا الى دواوين الشعراء الاقدمين ولم ينظروا الى دواوين الطبيعة وصحائف العالم الذي فيه يعيشون ، فلا امل في شعرهم ، ولا نثرهم وظل المتعلم